أطلال غسان سلهب

نديم جرجورة

يستكمل "أطلال"، الفيلم الروائي الطويل الثالث للمخرج اللبناني غسان سلهب، سيرة مهنية وحياتية خاصّة بمخرجها. وهي سيرة مفتوحة على أسئلة معلّقة، يحاول السينمائي المولود في السنغال قبل خمسين عاماً أن يصنع منها عالمه البصري. والسيرة لا تعني ترجمة سينمائية لحياة شخصية أو لتجارب يومية، بل تفصيل ثقافي وفني أساسي، يعني النتاج السينمائي المتكامل، الذي يستمرّ سلهب في بنائه فيلماً إثر آخر، سواء كان الفيلم روائياً أم تجريبياً، طويلاً أم قصيراً.

بمعنى آخر، فإن السيرة التي يكتبها غسان سلهب في أفلامه لا علاقة لها بالمفهوم المتداول لتعبير "سيرة": فهو لا يقتبس ذكرياته أو ذاكرته الفردية أو الجماعية، ولا يستلّ من محيطه الإنساني المباشر إلاّ ما يراه مناسباً لتغذية نصّه الإبداعي. إنه، ببساطة، يجعل أفلامه سيرة مستقلّة بحدّ ذاتها، تتّخذ من مدينة بيروت فضاءً واسعاً لطرح أسئلته الإنسانية العامة. إنه يدفع أفلامه إلى تخوم التماس الحميم بالمدينة، جاعلاً إياها (أي المدينة) شخصية أساسية بدل أن تكون ديكوراً لأحداث درامية معينة. فالمدينة جزء من الحكاية، لها دور فاعل في صوغها وبلورة تفاصيلها وهوامشها. والفيلم الذي يصنعه غسان سلهب لا يُدرك شكله النهائي من دون أن تكون المدينة حاضرة في ثناياه ومساراته.

هنا أيضاً، يختلف أسلوب غسان سلهب في كتابة نصّه السينمائي: فهو، باختياره بيروت وناسها مادة إبداعية لنتاجه الفني، يكسر السياق التقليدي في سرد حكاية. وهو، بكسره هذا التقليد في بناء الحكاية، يُحرّر عمله الفني من اللغة الكلاسيكية المعروفة في البناء القصصي في الغالبية الساحقة من الأفلام العربية. إنه لا يعتمد التقسيم المتّبع في الرواية السينمائية، بل يُفكّك كل شيء، كي يبني نصّه بحدّة وجمالية واضحتين، تحرّضان على المُشاهدة والبحث في التفاصيل الصغيرة على ما يجعل المتلقّي مشاركاً فعلياً في إنجاز الفيلم.

يأتي "أطلال" بعد تجربة طويلة أمضاها غسان سلهب في إبتكار نمط سينمائي لبناني يعتمد سرداً جمالياً في مقاربته الفنية والإنسانية أحوال بيروت وناسها. لكن "أطلال"، وهو الثالث بعد "أشباح بيروت" و"أرض مجهولة"، يختلف قليلاً عن المناخ المعتمد في فيلميه السابقين، إذ تمتّع بـ"قصّة" (!) سرد تفاصيلها بلغة سينمائية أسلس من اللغة الموجودة فيهما. يُسطّر "أطلال" فصلاً مستقلاً من رحلة المخرج في بحثه عن خفايا الفضاء السينمائي وعوالمه المفتوحة، كما في اختباره معاني الصُوَر السينمائية، ذاهباً بها إلى تخوم التجريب والاختلاف، من دون التغاضي عن بحثه الثقافي والجمالي والدرامي في مآزق الفرد وعلاقته بذاته وموقعه في داخل الجماعة التي تحيط به، وارتباطه بالمدينة التي يقيم فيها هذا الفرد (وربما أيضاً المخرج نفسه)، ومقاربته السلوك البشري الذي يعتري ناس المدينة. بين انشغاله بالهمّ الجمالي للصُوَر السينمائية التي يصنعها. وتنقيبه الدرامي في تحوّلات المدينة وناسها: كشفت الأفلام كلّها التي أنجزها سلهب منذ نهاية تسعينيات القرن المنصرم عمق التحليل البصري والاختبار المتنوّع لأشكال العلاقات المفتوحة وغير المنتهية بين الصُوَر والحكايات.

يُمكن التعاطي مع "أطلال" كثالث ثلاثية بدأها المخرج غسان سلهب بـ"أشباح بيروت"، ومنحها تطوراً لافتاً للانتباه (شكلاً ومضموناً) في ثاني الثلاثية "أرض مجهولة"، قبل أن يبلغ حدّاً شفافاً في إخضاعه المدينة وناسها لفحص سينمائي جميل. يُمكن التعاطي مع "أطلال" كفصل ثالث من رحلة سينمائية خاصّة بالسينمائي، وبعلاقته العضوية والحميمة ببيروت. وفي مقابل هذا، يُمكن (ببساطة) تجريد الفيلم من هذه الصفة، ومُشاهدته كصنيع إبداعي يُحدّد سياقه الدرامي من خلال التطوّر الحاصل في حبكته المتحرّرة من تقنية السرد القصصي الكلاسيكي، من دون أن تتخلّى (الحبكة) كلّياً عن نسقها التقني. إن مشاهدة هذه الأفلام الثلاثة تكشف أن ما يجمعها كامنٌ في رغبة مخرجها في التعمّق السينمائي (لغة وأسلوباً وتحليلاً بصرياً وفهماً جمالياً وتقنياً) في بيروت المدينة والناس والتفاصيل اليومية المنبثقة من الحرب الأهلية (كما في الفيلم الأول)، والطالعة من أزمة ما بعد النهاية المزعومة للحرب اللبنانية، ومن التفكّك الإنساني والاجتماعي والأخلاقي والثقافي في مرحلة السلم الأهلي الهشّ والمنقوص (الفيلمان الثاني والثالث). لكن، لا بُدّ من تأكيد مسألة مهمّة للغاية: لم يتطرّق غسان سلهب في أفلامه هذه للحرب كفعل يومي وكنصّ دموي وعنيف مباشر، ولم يصوّر المعارك والدمار، بل غاص في خراب المرء وضياعه وتدميره الذاتيّ الداخلي.

في "أشباح بيروت"، تعيد عودة مقاتل ميت إلى الحياة فتح ذاكرة مدماة، تكشف أسرار العلاقات القائمة بين الناس، وتبحث في ثنائية الموت والحياة، وتتناول معنى الشبح وملامحه الخفية على أساس إسقاط هذا كلّه على موقع بيروت في ارتباط ناسها بها، والتبدّلات التي تصيبها وتصيبهم معاً. هذان الموقع والتبدّلات وما بينهما من تفاصيل يظهران في "أرض مجهولة" من دون أن يكونا استكمالاً لمصائر شخصيات الفيلم الأول وممثليه (اعتمد سلهب في الفيلم الأول تقنية الوثائقي، حين دفع ممثليه إلى التحدّث أمام الكاميرا عن اختبارات عاشوها وانفعالات أحسّوا بها، وعن علاقاتهم بأنفسهم والمدينة والحرب والذاكرة والتفاصيل اليومية للعيش). فـ"أرض مجهولة" لا "يروي" سير شخصيات "أشباح بيروت"، ولا يستكمل مغامراتهم المعقودة على ثنائية الحياة والموت، بل يُقدّم شخصيات مختلفة، وأناساً يواجهون مآزق الآنيّ على ضوء الماضي. يتحدّث شباب "أرض مجهولة" عن فقدانهم حياتهم السوية في مدينة فقدت هي أيضاً حياتها السوية، وعن انسداد أفق وعزلة حاضر. وهم، بهذا كلّه، لا يعتمدون كلاماً مباشراً أو خطابية جوفاء، بل يعيشون آلامهم وخوفهم وخرابهم الداخلي، كما آلام المدينة وخوفها وخرابها الداخلي، أمام الكاميرا ومعها.

كما الفيلمين السابقين، يدعو "أطلال" المشاهدين إلى طرح أسئلة عدّة: الوجود في هذه المدينة ووجود المدينة أيضاً، العلاقة بها، المصائر المتناقضة التي تتضارب في يوميات الفرد، مآزق الفرد وتناقضاته، إلخ. ويغوص في التمزّق الحاد والمتنوّع الذي يعيشه الفرد والمدينة، الناتج من بؤس الحياة اليومية في بيروت، ويقرأ شيئاً من معالم التحوّل الذي يصيبهما معاً، ويُشرّح فضاء الشقاء الذي يُظلّلهما، بموارية فنية جميلة. اختار غسان سلهب في "أطلال" أسطورة مصّاص الدماء، مسقطاً إياها على التحوّل الذي يُدركه المرء المقيم في مدينة تعاني، هي أيضاً، تحوّلاتها الأخطر. غير أن هذه الشخصية الأدبية والسينمائية لا تظهر في الفيلم بشكلها المعروف، ولا تهيم في شوارع المدينة ليلاً بحثاً عن ضحاياها، على الرغم من أن سمات عدّة (الليل والنهار، العطش إلى الدم، التقوقع في عزلة بعيداً عن الناس، إلخ.) استعان بها المخرج من التفاصيل المحيطة بمصّاص الدماء، كي يرسم شخصيته الخاصّة المتمثّلة بطبيب يمارس هوايته المفضّلة (الغطس في البحر) ويعيش حياة هانئة (هل هي هانئة أصلاً؟) بدت غطاء واهياً لقوة الانهيار والتمزّق الداخليين، اللذين انعكس فيهما انهيار المدينة وتمزّقاتها. ما يميّز الفيلم أيضاً، كامنٌ في أنه يمتلك نصاً سينمائياً قادراً على التعامل الأسهل والأسلس مع المتلقّي، من دون أن يتخلّى عن عمقه الدرامي في طرح الأسئلة. وعلى المتلقّي، إزاء هذا كلّه، أن يختار بين أمرين: إما الدخول في عالم "أطلال"، وبالتالي في المسار السينمائي الذي أنجزه (ولا يزال ينجزه) سلهب في "أشباح بيروت" و"أرض مجهولة"، وإما البقاء خارجاً، أي بعيداً عن التقاط النبض المعتمل في شرايين الفيلم وروحه وإنسانيته القصوى في إعادة بلورة المعطيات الحية والواقعية التي يعانيها اللبنانيون، فإذا بالفيلم مرآة لهم، لا تكتفي (المرآة) بكونها انعكاساً للمعطيات (أي للواقع)، بل تلعب دور المفكّك والمشرّح للسلوك البشري في مجتمع قابع في أحضان الأوهام والأشباح والمتاهات القاسية.